أصابع حمراء

منيرة جوّادي/ تونس

رغم العقود التي مرّت لازالت نور تُحدثنا كلّما جرت الرياح عن أيامها المعتمة...

لم يعد الغروب غروبا ولا الفجر فجرا ولا هم كما كانوا... تبدلت أنفاس مدينتها الساكنة. أضحى صدرها خانقا كقبر، وأضحت الخلائق كمن يتكيء على الجمر والصّلَى... وجه آخر غريب يبزع من خلف الأسوار، وأصابع حمراء... ما كانوا يعبأون بالأسوار والحدود، ولا كانوا يتخيلون أن الأنين سيلهو بأفئدتهم يوما، ولطالما آمنوا أنَّ بيوتهم خُلِقَت لتكون آمنة مطمئنّة... والآن، ياحسرتهم، يحتاجون ألف سور كي يستمروا ويحيوا... إنها ريح الحرب الخبيثة تجري فوق سواحلهم بلا رحمة... وبحثتْ نور عن جدران مدرستها المجيدة ذات غزوة كالقيامة... انقلب كل شيء رأسا على عقب، المِتْراس والفصول الصغيرة وحديقتهم التي لعبوا فيها، وتهَامسوا، وتضاحكوا... مازالت لا تعرف كيف نجت؟ لكنها نجت وحيدة... البيت ودكان الجار وأرجوحة الحي كلها ابتلعتها النار في جوفها الذي لا يشبع...

وسارت بمفردها تبحث عن أمها بين الهياكل المحترقة، والهامات المثقوبة... وكانت بقايا، واتقد الجوى في قلبها، فاعتنقت البكاء مع كل الفاقدين... وباتوا يقضون الليل مع بعضهم، وينامون ولا تنام... قضت أربعة أشهر تنتظر فواجع الدُّجى وزفرات المدافع التي أحرقت أهلها وكل أشيائها الجميلة... وحاولت مرارا أن تنسى البرك الحمراء والأشلاء والغبار الثائر، لكنها كانت في كل محاولة تزداد جبنا وتنهزم، وتتخلى عن جزء ثمين من روحها القديمة...

وَظلّت الأيام تسير بصبحها وشفقها وليلها الغامض...

دخلت عليهم مديرة الملجأ ذات صباح وهي تبتسم، ثمّ قالت: "أكدت الإذاعة أن الأمن عاد إلى المدينة. عناصر الشغب لن تطأ هذه الأرض مجددا."

سألتها نور بصوت مرتعش: "وبيتنا، هل سيعود؟"

قالت وهي تربت على كتفها: "نعم، اطمئني، يا صغيرتي، سيعود، سيعود... بعد أشهر ستعودين إلى حيك القديم... سيُبنى كل شيء من جديد، وكما كان، أو ربما على صورة أتمّ وأجمل..."

أمسكت عن الكلام برهة، رغم الصخب الذي نشأ في صدرها، ثم طلبت الإذن، وقالت: "لا أريده أجمل، أريده كما هو... قولي لهم، إن نورا تريد كل الزوايا على شاكلتها القديمة..."

قالت لها بكل حنو: "سأبلغهم مطلبك، فقط كوني آملة وبخير..."

وجالت بخاطرها تلك الغرف الحبيبة والأصوات والود والله، فاقتربت منها، وقالت: "ودميتي، هل سأجدها هناك؟ وأوراقي ومكتبي وسريري الوثير ووسادتي البيضاء؟"

قرفصت أمامها، وقالت: "وهل تظنين أنك تعودين ولا يعودون؟ أنتم تتواجدون معا. لا تخشيْ شيئا؟"

_"أأنتِ متأكدة، يا سيدتي، أن ذاك الوبال الذي أحرقنا لم يأخذ أشيائي؟"

-"بلى، ذاك الوبال مضى وانطفأ، وأشياؤك ظلّت، رغم الحرائق، ثابتة..."

حينها ابتسمت وكأنها تمسك الهواء بيمينها، ثم قالت: "أتعنِينَ أنني سأجِدُ أمي؟ هل هي هناك؟ لا بد أنها تعد الكعك، أو ربما تحِيكُ لي قفازات صوفية وفستانا زهريّا كما وعدتني... خذيني الآن، خذيني، مؤكد أنها تنتظرني، يا سيدتي، لا أريد أن تضجر أمي بسببي أو تجزع... أريد أن أحضنها، وأشم ضوع عطرها، وأتحسس نعومة قلبها.. خذيني الآن."

هذه المرة احتضنتها، وأحسّت باهتزاز صدرها الباكي، وتبللت وجنتيها بدمعها، وعلمت ساعتها أن مطلبها الأخير كان مجرد هذيان طفولي... قالت لها، وهي تنسحب من بين ذراعيها: "كل أشيائك عادت إليك، أما أمك فذهبت إلى مكان أجمل، يا حبيبتي... لقد سافرت على جناح ملاك أبيض إلى مكان اسمه الجنّة. أطلبي من الله أن يرحمها عندما تصبحين وتمسين، وستزورك كل ليلة، وتحتضنك، وتحكي لك قصَصًا شيّقة عن عالم السّماء، إنه عالم جميل وهاديء... عودي إلى مكانك القديم حينما ينشأ البيت من جديد، وسنكون دوما معك..."

بكَتَ كثيرا، وقالت: "كيف أعود؟ لن أعود. سأنتظر أمي هنا. أنا لا أملك سواها... سأنتظرها وستأتي... أمي لا تخلف وعودها أبدا..."

ومضت ترقبها بين جدران الملجأ، وفي ساحات أحلامها، وترسمها على أوراقها جمَالا ورواء لا ينتهيان... وأصابها التّعبُ، تعب الانتظار والأمنيات الكاذبة... ولم تأت... ورَغْمَ ذلك لم تيأس...

ثمّ مضى زمن طويل وكبرت، وتحوّرت أفكارها، وأيقنت أنه أضحى لزاما عليها أن تكتفي بالذّكرى والخيالات والدمع، فَكتبت على آخر ورقة في مذكرتها أن ما سرقته أصابع الحرب الدنيئة لا يعود، لا يعود أبدًا، وأن ما تحفره القنابل في القلوب أهول ألف مرّةٍ مما تحفره على المتاريس والساحات والأتربة...